صوفيات عبر الحياة

بقلم: الدكتور
مصطفى كمال وصفى

النظام والرحمة :

كان الوقت ظهراً . والقيظ على أشده وضغط السيارات المندفعة من القاهرة إلى غربها عبر الكوبرى شديد . القلوب بالغة الحناجر . والضيق شديد . وشرطة المرور دائبة التنظيم والتعريف بكل جهة . يفتح لهذه الشعبة تارة وبقدر ، وتفتح للاخرى بمثلها لاتزيد هنا ولا تنقص هناك . والويل الويل لأقل مخالفة . لن ترحمه سيول السيارات المتدفقة ، ولن يلقى من الشرطة أى رحمة الأمر كله منوط للدقة والنظام ..

ووصلت سيارة الصوفى إلى الطليعة على حاجز الخط فى انتظار الأشارة الخضراء أن تأذن للسير .. ورأى الشيخ الفانى الضعيف الذى اربكته هذه الحركة وهو راعش الساقين متدلى الفك زائغ العينين كلما هم بالعبور خاف السيل أن يفتح عليه وقد ركبته الحيرة .. رباه ماذا يملك الصوفى لهذا الشيخ وهو نفسه مقيد بهذا السيل من السيارات من ورائه ... إن الشرطى يهيب بالشيخ أن يعبر بسرعة وقد أغاظه منه ارتباكه ورعشته . والرجل لايقوى على السير المكدود إلا بشق الأنفس . وأخيرا عبر الطريق وقد سقطت عصاته وانفرط خرجه وتبعثرت حاجاته ولكنه وقف يلهث شاخصا إلى السماء أن استطاع المرور .. وليتأهب إلى عمر مثله ..

ماهذا الخاطر الذى برق فى ذهن الصوفى .. ؟ ما أصدق ! أن الحياة الآن يحكمها قانون جديد هو قانون الضغط والنظام . . فمتى زاد الضغط فى الحياة كان قانونها النظام ولا رحمة . أما الرحمة فهى إذ توضع مصلحة فردية قبل مصلحة

فردية . أما إذا وضعت مصلحة فردية قبل مصلحة عامة مشتركة . . فلا رحمة . بل نظام .

هذا من مظاهر الحياة المادية الحديثة

ياصبور

كان الصوفى سائراً فى حالة كالمعتاد . ابتدره ـ كالمعتاد أيضا ـ رجل بالعدوان بلا سبب ، ورد عليه الصوفى بأطيب ما استطاع ، لا لشىء إلا لأنه قد تعود الإحسان . . .

ثم مضى يفكر ..

لشدة ما غيره سلوك الطريق .

لقد كان فى البداية مثل هذا الرجل فى عدوانه ، ولايقتصد فى الأقتصاص لنفسه ، بل يسبقهم إليه ويبادرهم حتى « يتغذى بهم قبل أن يتعشوا عليه » وحتى لا يستضعفوه أو يستلخموه .. أو غير ذلك مما كانت توسوس له به نفسه .

ولم يكن هناك من يفوقه فى ذلك فقد كان من أرذل الناس . ثم تشذب خلقه قليلا وتهذب . فصارت هناك طائفة أشر منه . وكان عليه أن يتحملها .

ثم رقى خلقه مرة أخرى . فكثر غالبوه . وصار ضحية لعدد أكبر .

ومازال غالبوه يزيدون ، ومازال يزيد تحملا وصبراً ، وكلما ارتقى درجة قل أذاه للناس وكثر ايذاء المؤذون له .

ياالله ، هكذا ادنى الناس خلقا أكثر حرية فى الايذاء يتحمله كل من عداه : لأنهم ايسوا على شاكلته فى فعل الأذى ، وكلما علت درجته كلما كف عن ايذاء من هم أدنى منه .

فاهو حال أفضل الناس إذن مما يلقاه من الناس . وكم أن الله صبور .. إذ يطلع على أفعال أكابر المجرمين ونواياهم جيل بعد جيل وزمن بعد زمان . يهلكون الحرث والنسل ويشنون الحروب ابتغاء الكسب أو للكبرياء ، ويسبون الله عدواً بغير علم ، فيصبر ويصبر ، ومن أجل ذلك هو فى علاه الصبور